الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ
وَالتَّذْكِرَةُ العَامَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الدَّعوةُ التَّامَّةُ

وَالتَّذكِرَةُ العَامَّةُ

لِلإمَام شَيخ الإسلَام قُطب الدَّعوَة وَالإرشَاد
الحَبيب عَبدُالله بن عَلَويّ الحَدّاد الحَضرَميّ الشَّافعيّ
رَحمَه الله تعالى

دَار الحَاوي
للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الرابعة
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م
مصححة ومنقحة

تعريف موجز عن الإمام الشهير عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

هو سيدنا الإمام العلامة الداعي إلى الله بقوله وفعله قطب الإرشاد الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد ولد رضي الله عنه بالسبير من ضواحي مدينة تريم بحضرموت ليلة الخميس ٥ صفر سنة ١٠٤٤ هـ وتربى في تريم وقد كف بصره وهو صغير فعوضه الله عنه بنور البصيرة وجد واجتهد في طلب العلوم النافعة وعكف على علماء عصره في مقدمة مشايخه سيدنا الحبيب عمر بن عبد الرحمن العطاس والحبيب العلامة عقيل بن عبد الرحمن السقاف والحبيب العلامة عبد الرحمن بن شيخ عيديد والحبيب العلامة سهل بن أحمد باحسن الحديلي باعلوي ومن مشايخه أيضا الإمام العلامة عالم مكة المكرمة السيد محمد بن علوي السقاف .

ثم نصبه الله للدعوة والإرشاد داعيا إلى الله تعالى

بالحكمة والموعظة الحسنة فأقبل عليه الناس وانتشر
صيته في البلدان وانتفع به القاصي والداني فنفع الله
به الكثير وأرشد الجم الغفير وانتشرت دعوته في كل مكان
وانتفع الناس بوعظه وكتبه وأخذ عنه الجم الغفير
فمن كبار تلامذته ابنه سيدنا الحبيب حسن بن عبد الله الحداد
والحبيب أحمد بن زين الحبشي والحبيب عبد الرحمن بن عبد الله
بلفقيه والحبيبين محمد وعمر أبناء زين بن سميط والحبيب عمر بن
عبد الرحمن البار والحبيب علي بن عبد الله بن عبد الرحمن السقاف
والحبيب محمد بن عمر بن طه الصافي السقاف وغيرهم العدد الكثير.
وله مؤلفات كثيرة جمعت النصائح والمواعظ والحكم وانتشرت
انتشاراً كبيراً وكتب لها القبول والمحبة ونفع الله بها الناس
وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى لغات أجنبية في العصر الحاضر
مثل الإنجليزية والفرنسية. ومؤلفاته غنية عن التعريف

ومشهورة لدى الكبير والصغير ومنها النصائح الدينية. والدعوة التامة ورسالة المعاونة وغيرها من الوصايا والرسائل ومجموع كلامه تبيت الفؤاد وديوانه العظيم الدر المنظوم الجامع للحكم والعلوم ووصاياه ومكاتباته وأكثر مؤلفاته مطبوعة وأقبل عليها الناس إقبالاً شديداً وأعجب بها العلماء والعارفون وجعلوها بمنزلة الغذاء يقرئون فيها في كثير من الأوقات وقالوا عنها انها جمعت الخلاصة والزبدة من كلام الإمام حجة الإسلام الغزالي ولا يستغني عنها كل مسلم فهي وجيزة وجامعة ونفع الله بها ببركة مؤلفها الإمام الحداد رضي الله عنه وكان رضي الله عنه قد سافر إلى الحرمين الشريفين وأدى النسكين وزار جده سيد الكونين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وذلك في عام ١٠٧٩ هجرية واجتمع بعلماء الحرمين الشريفين الذين اغتبطوا به وعرفوا قدره وأثنوا عليه .

ولم يزل يدعوا الناس إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة حتى وفاته إلى رحمة الله تعالى فتوفي ليلة الثلاثاء ٧ ذو القعدة عام ١١٣٢ هجرية ودُفن بمقبرة زنبل بتريم رحمه الله رحمةً واسعة ورضي الله عنه ونفعنا به وبعلومه في الدارين آمين .

طه بن حسن بن عبد الرحمن السقاف

حرر الجمعة ٢٢ شوال سنة ١٤١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ .

سُبْحَانَكَ ! لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ .

الحمد لله ذي الجلال والإكرام ، الملك القدُّوس السلام ، المؤمن المهيمن العلاَّم . الذي منَّ علينا بأن هدانا إلى الإيمان والإسلام ، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس والأنام . وبيَّن لنا في كتابه العزيز المبين ، وعلى لسان رسوله الصادق الأمين ، شرائع الدين من الحدود والأحكام ، ومناهج الحلال والحرام . وميز لنا بين الحق والباطل ، والهدى والضلالة ، والطاعات والآثام ، فَوضَحت بذلك المحجة للسالكين المهتدين ، وقامت به الحجة على التاركين المعتدين . وله سبحانه وتعالى النعمة السابغة ، والحجة البالغة على جميع العالمين من كل خاص وعام . خلق الخلق لما يشاء ،

واستعملهم فيما يشاء ، رحمة وفضلاً ، وحكمة وعدلاً . ونوَّعهم في ذلك وفي غيره من أحوالهم وأفعالهم وسِيَرِهم ، وصوّرهم على أنواع ، وقسمهم فيه على أقسام ؛ ليدل بذلك على عظيم قدرته الباهرة ، وعلمه المحيط ، ومشيئته القاهرة ، وشؤونه الباطنة والظاهرة . وليس في شيء من ذلك بجائر على عبيده ولا بظلاَّم . لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. خلق الجنة وخلق لها أهلاً ؛ فهم بعمل أهل الجنة يعملون . وخلق النار وخلق لها أهلاً ؛ فهم بعمل أهل النار يعملون . وهم في جميع ذلك لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً. وليسوا بذلك في حال تقصيرهم عن القيام بحقه ، والإمتثال لأمره ، والوفاء بعهده ، ولا في ارتكاب نهيه ، والعمل بمعصيته ، يُعذَرون ؛ مهما كانوا مختارين وغير مستكرَهين ولا مقهورين ولا مجبورين . وقد هلك المتنطِّعون والمتعمقون ، والمترخِّصون المحتجُّون على ربهم ، الذين قال فيهم عزَّ من قائل : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[1] [الأنعام : ١١٦/٦]

---

(١) يكذبون .

فله سبحانه الحَول والطَّول[1] ، والفضل والإحسان ، والمنّ والإنعام . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ، الذي أرسله رحمة للعالمين ، وختم به النبيين ، وجعله سيدَ المرسلين ، وأكرمَ السابقين واللاحقين ، وأوّل الشافعين المشفّعين ، وعلى أهل بيته الطاهرين الكرام ، وعلى أصحابه الأئمة الأعلام ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم البعث والقيام، والحشر إلى الله والحساب والوزن ، والعبور على الجسر الذي تَثبت عليه أقدام وتَزِل عنه أقدام ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ١٤/٢٧] ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] والسخط والانتقام ، ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [إبراهيم : ١٤/٢٣] . اللهم إن بك العياذَ واللياذ ، والاستعانة والاعتصام . نعوذ بك اللهم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ومن شر كل شيطان مارد ، وجبار معاند ، وباغ وحاسد ، ومن شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج

---

(١) الحول (بسكون الواو) : القدرة . والطول (بفتح الطاء) : الغنى والسعة.

فيها ، وأنت الرحيم الغفور . تجيرُ ولا يُجار عليك ، ولا مَنْجَىٰ منك إلا إليك . اللهم ٱهدنا بهداك ، واجعلنا ممن يسارع في رضاك . ولا تولِّنا وليًّا سواك ، ولا تجعلنا ممن خالف أمرك وعصاك . وحسبنا الله ونعم الوكيل . ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ١١/٨٨] ، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٤/٤٥] ، ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال : ٨/٤٠] ، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٥] ، الذي تفرَّد بالقِدَم ، وتوحَّد بالبقاء والدوام .

أما بعد : فهذا مؤلَّف مبارك ـ إن شاء الله ـ ومجموع جمعناه بعون الله ، ذكرنا فيه نُبَذاً وأطرافاً من النصائح والوصايا ، والآداب العلمية والعملية ، التي يتعين ويتأكد الأخذ بها ، والاتصاف بحقائقها ومعانيها ، وقصدنا بذلك النصيحة والوصية والتأديب لأنفسنا ولإخواننا في الدين من المؤمنين والمسلمين ـ وفقنا الله وإياهم لمرضاته ، وجعلنا وإياهم ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ، ويشكره ويذكره ذكراً كثيراً ، ويسبحه بكرة وأصيلاً ـ والأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى ، والمرء حيث قَصْده لا حيث جسمه ،

و ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٤/١٧] ، ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص : ٦٩/٢٨] ، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠/٢٨] . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[١] الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « من غزا وهو لا ينوي إلَّا عِقالًا فله ما نوى »[٢] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرُش[٣] ، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله ليؤيد هذا الدِّينَ بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم »[٤] اللهم اجعل ما علّمتنا حجة

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه واللفظ له ، عن أبي هريرة .

(٢) راواه أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت . والمراد : أنه لا ينوي إلا الغنيمة .

(٣) أي الذين يموتون على فرشهم ، وهم على نية الجهاد في سبيل الله . أو يموتون في طاعون ، أو بغرق أو حرق ، أو داء بطن .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن عمرو بن النعمان بدون قوله : « بأقوام لا خلاق لهم » . وفي رواية له عن ابن عمرو : « إن الله ليؤيد الإسلام برجال ما هم من أهله » .
وقوله : « لا خلاق لهم » : أي لا نصيب لهم في الخير .

لنا ومحجة إلى رضاك وجنتك ، ولا تجعله حجة علينا ، ولا سبيلاً إلى سخطك ولا إلى النار التي هي دار عقوبتك . اللهم انفعنا بما علمتنا ، وعلِّمنا ما ينفعنا . والحمد لله على كل حال ، ونعوذ بالله من أحوال أهل النار . وقد سمينا هذا التأليف :

« الدعوة التامة والتذكرة العامة »

ورتبناه على مقدمة ، وذِكر ثمانية أصناف ، وخاتمة .

فأما المقدمة :

فنذكر فيها شرح الدعوة إلى الله وإلى دينه وسبيله .

وأما الأصناف :

- **فالصنف الأول** : العلماء .
- **والصنف الثاني** : أهل الزهد والعبادة .
- **والصنف الثالث** : أهل المُلك والسلطنة ونحوُهم .
- **والصنف الرابع** : أهل التجارات والصناعات ونحوهم .
- **والصنف الخامس** : أهل الفقر والضعف والمسكنة .

• **والصنف السادس** : الأتباع من الأولاد والنساء والمماليك .

• **والصنف السابع** : أهل الطاعة وأهل المعصية من العامة .

• **والصنف الثامن** : من لم يستجب لدعوة الله ورسوله ولم يؤمن بالله واليوم الآخر .

وأما الخاتمة :

فتكاد تنعطف على نصيحة هؤلاء الأصناف الثمانية على وجه وجيز ، وعلى نصائح ومواعظ ورقائق ، وبتمامها يتم الكتاب ، والله هو الهادي إلى الحق والصواب ، ومنه نسأل العون والتأييد ، ونستمد التوفيق والتسديد ؛ هو ربي لا إلٰه إلَّا هو عليه توكلت وإليه متاب .

وهذا أوان الشروع في المقصود ، وبالله الاستعانة وعليه البلاغ ، لا إلٰه غيره ولا رب سواه ، ولا معبود ولا مقصود إلَّا إياه ، وله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان ، أولًا وآخراً ، وظاهـــراً وباطناً ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣/٥٧] .

* * *

المقدّمة

وَنذكرُ فيهَا الدّعوَة إلى الله تَعَالى وَإلى دِينِهِ وَسَبيلِهِ ، والأمرَ بذلكَ وَفضلِه وَالحَثّ عَليهِ ، وَفيهَا التّنبيهُ على مَسَائِل مُهِمّة ، وَفوائِدَ جَمّة .

قال الله العلي العظيم ، القوي المتين ، في كتابه العزيز المبين ، لرسوله الصادق الأمين : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٦/ ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٢/ ١٠٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٤١/ ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ

﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٣/١٠٤] .

فالدعاء إلى الله وإلى سبيله ودينه وطاعته . . وَصْفُ الأنبياء والمرسلين ودأبهم ، وبه وله بعثهم الله وأمرهم وأوصاهم ، وعليه حثَّهم وحرَّضهم ، وعلى ذلك اتبعهم واقتدى بهم ورثتهم من العلماء العاملين والأولياء الصالحين من عباد الله المؤمنين ؛ فلم يزالوا على كل حال ، وفي كل زمان وحينٍ ، يدعون الناس إلى سبيل الله وطاعته ، بأقوالهم وأفعالهم ، على غاية من التشمير والجد في ذلك ؛ ابتغاءً لمرضاة الله ، وشفقة على عباد الله ، ورغبة في ثواب الله ، واقتداءً برسول الله ﷺ . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مِثلُ أجور من اتّبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتّبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »[1] وقد قال عليه الصلاة والسلام : « الدال على الخير كفاعله »[2] .

وما ورد من الآيات والأخبار والآثار في الأمر بالدعاء إلى

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة .

(٢) رواه البزار عن ابن مسعود ، والطبراني عنه ، وعن سهل بن سعد .

الله وإلى سبيله ، وفي فضل ذلك ، كثيرة شهيرة .

وكُلُّ ما ورد في فضل نشر العلم وتعلمه ، وفي فضل الوعظ والتذكير ، بل وفي فضل الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل ومندرج في فضل الدعاء إلى الله تعالى وإلى سبيله ؛ فإن جميع ذلك من أنواعه وأقسامه .

ومن قصَّر عن الدعاء إلى الله وإلى دينه من المتأهلين له مع التمكن منه ، فإنه داخل تحت عموم الوعيد الوارد في حق مَنْ كتم ما أنزل الله من البينات والهدى ، وفي ذلك وعيد شديد ، وعذاب وبيل ، وذم من الله بليغ ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥] .

وقد أخذ الله المواثيق والعهود على الذين آتاهم كتابه وعِلمه وحكمته في أن يدعوا عباده إلى ذلك ، ويبينوه لهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ

لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

وقال رسول الله ﷺ : « من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[١] . والسؤال بلسان المقال ظاهر جلي ، ولا يبعد أن يكون السؤال بلسان الحال مثله أو قريباً منه ، وقد قيل : « لسان الحال أفصح من لسان المقال » .

فإذا رأى ونظر العالم بدين الله ، المذكِّر بأيام الله ، الداعي إلى سبيل الله إلى الجاهلين بالعلم ، الغافلين عن الآخرة ، المقبلين على الدنيا ، لم يسعه إلا أن يبين لهم ما يجب عليهم من حق الله ، ويلزمهم من طاعته وإقامة أمره ، واجتناب معصيته وركوب نهيه .

فأما العلماء المقصرون ، الذين قد غلب عليهم التفريط والتخليط فليس يهمهم ذلك ، وربما لم يخطر لهم على بال ؛ لأنهم قد شاركوا الجهال في الإضاعة والإهمال ، وسيِّىء الأعمال والأقوال . فليسوا يتميزون عليهم إلا بصورة العلم ورسومه ، التي على ألسنتهم وظواهرهم ، فليس أولئك من

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة .

أئمة الهدى ، ولا مِن دعاة الخير ، ولا أدلاء الطريق إلى الله الملك العظيم . بل قد يكون منهم من يكون هو السبب في جراءة العامة وتجاسرهم ، واسترسالهم فيما لا خير فيه من الأقوال والأفعال التي تُسخِط الله ورسوله . وذلك أن العامة إذا رأوا المنسوبين إلى العلم والدين ، يتهاونون ويتساهلون في إقامة أمر الله وفرائضه ، ولا يسارعون في طاعته ربما حملهم ذلك على الإهمال والإضاعة لأمور الدين ؛ بل ربما جرَّأهم ذلك على الوقوع في المُهلِكات والجرائم والموبقات ؛ فصار العلماء الكائنون بهذه المثابة من دعاة الشر وأئمة الضلالة ، من حيث يعلمون أو من حيث لا يعلمون . فنعوذ بالله من الانعكاس والانتكاس ، ونسأله العافية من كل محذور وبأْس ، لنا ولأحبابنا وللمسلمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

ثم إنه ليس يسع أهلَ الحق والدين من العلماء الراسخين ، الناصحين لله ورسوله وللمسلمين ، بعد ما قد رأوا وشاهدوا بالعِيان من إعراض العامة عن العلم والهدى ، وعن إقامة الأمور الإلٰهية ، والفرائض الدينية ، وركوب المحرمات الشرعية ، والرضا بالجهل بدلًا من العلم ، والضلالة عوضاً

عن الهدى ، والباطل خَلَفاً عن الحق ؛ مع الإكباب على الشهوات ، والسعي في نيل الحظوظ الفانيات ، وإيثار الدنيا على الآخرة ، والرضا بما يَذهَب ويَفنىٰ بدلًا عما يدوم ويبقى ، أن يسكتوا عن أمرهم ونصيحتهم ، وإقامة أمر الله فيهم ، ودعوتهم إلى الهدى والخير ، ونهيهم عن الشر والمنكر . وأن يبذلوا في ذلك وُسْعَهم واستطاعتهم ، ويستفرغوا في ذلك جُهدَهم وطاقتهم ؛ فإن ذلك واجب عليهم إما على الأعيان ، وإما على الكفاية ؛ ليس لهم في ذلك عذر ، ولا في تركه سَعة ، وقد علَّمهم الله علمه ، واستحفظهم دينه ، وأورثهم كتابه وسنة رسوله ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « العلماء ورثة الأنبياء . إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورَّثوا العلم »[1] الحديث . وفي خبر آخر : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل »[2] . وكان يُبعَث في بني إسرائيل

---

(١) رُوي عن أنس كما في الجامع الصغير : « العلماء ورثة الأنبياء » . روى أحمد والأربعة وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً ما رواه المصنف ، وصححه ابن حبان والحاكم ، وحسنه بعضهم وضعفه آخرون لاضطراب سنده ؛ لكن له شواهد وله طرق يُعرَف بها أن له أصلاً ؛ كما قاله الحافظ ابن حجر ـ اهـ . عجلوني .

(٢) جَزَمَ بأنه حديث، الفخر الرازي، وابن قدامة والأسنوي والبازري وآخرون . =

النبيُّ بعد النبي بعد النبي مجددين لشريعة موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وداعين لهم إلى إقامتها ، ومحرضين على العمل بها ، ومخوِّفين لهم من إضاعة أمر الله وركوب نهيه ، وذلك بوحي من الله يوحيه إليهم ، كما يَعرف ذلك مَن نظر في أخبارهم وقصصهم ، إلى أن بعث الله عيسى بن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بشريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام فكفر به بنو إسرائيل وكذبوه ، وبَهَتوا أمه عليها السلام[1] . ثم وقعت الفَتْرة بعد عيسى عليه السلام ، إلى أن بعث الله عبده ورسوله محمداً ﷺ سيدَ ولد آدم ، بالقرآن والشريعة الجامعة ، الناسخة لِمَا تقدمها من الشرائع ، فكفرت به اليهود والنصارى ، وكذبوه إلَّا من شاء الله منهم .

ولما جعل الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه خاتِمَ النبيين والمرسلين ، فقال عزّ من قائل : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣/ ٤٠] فختم به النبوة والرسالة ، وجعله كمالَها

= ولكن قال السيوطي في « الدرر » وابن حجر : لا أصل له ـ اهـ. عجلوني.

(١) كذبوا عليها بأقوال باطلة .

وتمامها . كما قد جعل به ابتداءها وافتتاحها جعل به انتهاءها وختامها ، فليس بعده نبي ولا رسول ، جعل بفضله وجميل طَوله وامتنانه من علماء أمته الذين هم ورثته وخلفاؤه وحملة شريعته ، والأهمُّ في دينه ، من يُشبِه أنبياء بني إسرائيل من بعض الوجوه أو من أكثرها وإن كانت النبوة لا سبيل إليها، ولا مطمع فيها بعد رسول الله ﷺ بحال ، والسبيل إليها مسدود . وأيضاً فالاكتساب والاجتهاد لا يوصل إليها ، ولا تُنال به ولا في الوقت الممكن وقوعها فيه ، وذلك من قبل بعث محمد صلوات الله عليه ، وقد ختم النبوة والرسالة به .

فحيث كان الأمر على حسَب ما قد علمتَ وسمعت ، جعل الله في هذه الأمة المحمدية الدعاةَ إلى الهدى ، والمجددين لما اندرس من أعلام الدين ، وانطمس من معالم اليقين ، ووقع التقصير فيه والغفلة عنه من إقامة الأوامر الإلٰهية والنواهي الشرعية .

وإلى ذلك يشير ما روي عنه ﷺ أنه قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مئة سنة » .

قال العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ : فكان على رأس المائة الأولى الخليفةُ الصالح « **عمر بن عبد العزيز الأموي القرشي** »

ـ رحمه الله[1] ـ .

وعلى رأس المائة الثانية الإمامُ « **محمد بن إدريس الشافعي المطلبي** » ـ رحمه الله[2] ـ .

وعلى رأس المائة الثالثة الإمام « **ابن سريج الشافعي** »[3] أو الشيخ « **أبو الحسن الأشعري** »[4] .

وعلى رأس المائة الرابعة القاضي « **أبو بكر الباقلاني المالكي** »[5] أو الشيخ « **أبو حامد الاسفرايني الشافعي** »[6] .

وعلى رأس المائة الخامسة الإمام حجة الإسلام « **أبو حامد الغزالي** »[7] .

ووقع الخلاف في المجدد على رأس المائة السادسة ، والسابعة ، والثامنة ، والتاسعة ، والعاشرة ، التي بتمامها يتم

---

(١) المتوفىٰ سنة ١٠١هـ .
(٢) المتوفىٰ سنة ٢٠٤هـ .
(٣) وهو الملقب بالباز الأشهب المتوفى سنة ٣٠٦هـ ببغداد .
(٤) المتوفىٰ سنة ٣٢٤هـ .
(٥) المتوفىٰ سنة ٤٠٣هـ .
(٦) المتوفىٰ ببغداد سنة ٤٠٦هـ .
(٧) المتوفىٰ سنة ٥٠٥هـ .

الألف من حين هجرته ﷺ ، وبها وقع ابتداء التاريخ في خلافة أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » بإشارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ .

وكذا وقع اختلاف في المجدد على رأس المائة الثالثة والمائة الرابعة ، كما أشرنا إلى بعض ذلك . وذكر الحافظ السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في كلام له على معنى هذا الخبر الوارد فيمن يجدد لهذه الأمة دينها على رأس كل مائة سنة ، أنه محتمل أن يكون المجددون على رأس كل مائة سنة جماعة من العلماء الأئمة ، يحصل بمجموعهم التجديد للدين . وهذا الذي ذكره محتمل من حيث اللفظ والمعنى . وحيث لم يذكر السلف الصالح فيمن قد عينوه وعرفوه لتجديد القرون الأُوَل سوى واحد على احتمال فيه أو مع اختلاف ؛ فصار ما ذكره الحافظ السيوطي مما يُتوقف فيه ، وقد طال العهد بالوقوف على ما ذكره . والذي يظهر ويقع في الخاطر أن هذا حاصله ، والله هو العليم الخبير .

ويكون هذا التجديد من خواص هذه الأمة المحمدية ، لكون نبيها لا نبيَّ بعده ولا رسول ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ـ وقد بلغنا أنه لما قُبِض

رسول الله ﷺ وانقطع الوحي بموته ، شكت الأرض إلى ربها أنه لا يمشي عليها بعده نبي ؛ فجعل الله في هذه الأمة الأوتاد والأبدال ، وأمثالَهم من أولياء الله وأهل معرفته الذين هم ورثة الأنبياء وخلفاؤهم ، وحتى إنه قد ورد : أن منهم مَن قلبه على مثل قلب إبراهيم الخليل عليه السلام وغيرِه من أنبياء الله وملائكته عليهم السلام ، على وِفق ما ورد في الأخبار والآثار الواردة في هذا الباب .

وفي الحديث : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَن خَذَلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » ، وفيه « ليجدنَّ ابن مريم قوماً من أمتي هم مثل حواريه » الخبر .

وفي كلام أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ . اللهم لا تخلو الأرض من قائم لك بحجة ، إما ظاهر مشهور ، أوخاملِ مقهور ، إلى آخر ما روي عنه .

فدل ما ذكرناه وما لم نذكره مما في معناه على أنه : لا يزال في هذه الأمة من يدعو إلى الله وإلى سبيله ، وإقامة دينه وحفظ أمره في كل زمان ومكان . وإن فسد الزمان وغلب الباطل ، وتظاهر أهل البغي والعدوان ، فإن الدين مؤيَّد بتأييد

الله ، وظاهر بإظهار الله ؛ كما قال عزَّ من قائل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٩/ ٣٣] .

ثم إنه لا عذر للجاهل في ترك طلبِ ما فرض الله عليه من العلم ؛ كما قال صلوات الله وسلامه عليه : « طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم » ولا عذر لعالم في ترك تعليم ما علَّمه الله من العلم المفروض تَعَلُّمُه ، إما على العين وإما على الكفاية .

والعلم الذي في ذكره ونشره النفع للخاص والعام : هو العلم الذي يدعو من الدنيا إلى الآخرة ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الغفلة إلى اليقظة . ويكون ذكر ذلك وإيراده مقروناً بالوعظ والتذكير ، والتخويف والتحذير ، وبيان الوعد والوعيد ، وما أعد الله من أنواع المثوبات لأهل الطاعات والإحسان ، ومن أنواع العقوبات لأهل الإساءة والعصيان ، على نحو ما شرحه الله وبيّنه في آيات القرآن ، وعلى لسان رسوله المبعوث بالهدى والبيان ؛ فبمثل ذلك ترق القلوب وتخشع ، وتنقاد النفوس وتخضع ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا

﴿ رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢/٩] ، وفي حديث حنظلة رضي الله عنه حين قال لرسول الله ﷺ : نكون عندك فتذكِّرنا بالجنة والنار ، حتى كأنا نراها رأي عين ما يُنَبِّه على ذلك .

فترى كتاب الله وسنة رسوله مشحونين بذكر الترغيب والترهيب ، والتبشير والتحذير في خلال الآيات والأحاديث التي فيها شرح الأحكام وبيانها .

وكانت مجالس العلماء العاملين والأئمة المهتدين معمورة بذلك ، وكان منهم جماعة يقعدون على الكراسي ويجتمع عليهم الجم الغفير من المسلمين ، فيعظونهم ويذكِّرونهم بأيام الله وبآلائِهِ ، ويحثونهم على إقامة أوامره واجتناب نواهيه . وكان الناس ينتفعون بذلك ، وتظهر عليهم الآثار المحمودة من الخوف والبكاء ، والمسارعة إلى التوبة والرجوع إلى الله ، وذلك معروف ومشهور من سِيَرِهم سلفاً وخلفاً ؛ مثل : الجنيد ابن محمد[١] سيد الطائفة في زمنه ، وأبي حمزة البغدادي ، ويحيى بن معاذ الرازي[٢] ـ من المتقدمين ـ . ومثل : الإمام

---

(١) المتوفى ببغداد سنة ٢٩٧هـ .

(٢) المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٨هـ .

الغزالي ، والشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني[1] والشيخ السُّهْرَوَرْدي[2] صاحب العوارف ـ من المتأخرين ـ وأمثال هؤلاء من أئمة الدين ودعاة الخير وأدلاء الطريق ، إلى أن ضعف هذا الأمر ، وقلت الدعوة إلى الله ؛ فغلبت الغفلة على العامة ، واستولى عليهم الإعراض عن الآخرة ، والإقبال على الدنيا وزخارفها ؛ لقلة المذكِّرين ، والدعاةِ إلى الله على البصيرة واليقين ، حتى صارت مجالس المنسوبين إلى العلم والدين في مثل مجالس الغافلين المعرضين المشغولين بحديث الدنيا وذكر أحوال أهلها ؛ فلذلك عم البلاء ، واستطال الداء ، وخرِست ألسن المذكِّرين بالله ، وغلب الجهل والغفلة على عامة الناس ، حتى توهم من ليس له علم بأحوال من مضى من أهل الحق والهدى : أن الشأن على مثل ذلك كان ، وهيهات هيهات ! ولا مردَّ لما قد ذهب وفات ! ذهب العلم بذَهاب أهله وذَهاب الطالبين له والراغبين فيه ، وفي الحديث الصحيح : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض أهله ؛ حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ

---

(١) المتوفى ببغداد سنة ٥٦١هـ .

(٢) المتوفى سنة ٦٣٢هـ . ببغداد . ويكنى أبا حفص .

الناس رُؤُوساً جهالًا ، إذا سئلوا أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »[1] .

فانظر كيف صار نطق هؤلاء الجهال المترسِّمين أضر على الناس من سكوتهم ! تعرف به فرق ما بين علماء الدين الذين هم ورثة الأنبياء وأئمة الهدى ، وبين الجهال المتشبهين بهم والمترسمين برسومهم في رأي العين وظواهر الأحوال ، هؤلاء ينفعون الناس بعلمهم ، ويهدون الناس بهديهم ، ويبينون للناس سبيل ربهم وما فيه فوزهم ونجاتهم في معادهم ومعاشهم . والآخرون يضلون الناس بفتواهم ، ويلبِّسون عليهم أمرهم .

وسيأتي فيما بعد مزيد شرح في أحوال الجهال المترسمين المتشبهين بالعلماء في ظواهر أحوالهم مع إفلاسهم عن حقائق العلم والتقوى ، وإخفاقهم من بضائع الدين والهدى من طوائف المغرورين الذين غرتهم الحياة الدنيا ، وغلب عليهم اتباع الهوىٰ المشار إليه بقوله عزَّ من قائل : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

---

(١) رواه أصحاب السنن عن ابن عمر .

صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٨/١٠٣ـ ١٠٤] وقد ظهرت البدع والمحدثات ، وفشت المنكرات ، واستولت الغفلة والإعراض عن الله وعن الدار الآخرة على الخاص والعام ؛ فلم يبق عذر لأهل الحق والدين من أهل العلم واليقين في السكوت عن بيان الحق والهدى ، والدعاء إلى الله وإلى سبيله بالأقوال والأفعال ، والسعي بكل مستطاع وممكن في إماتة البدع والمحدثات وإزالة المنكرات ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا ظهرت الفتن ـ أو قال البدع ـ وسُبَّ أصحابي فليُظْهِرَ العالِمُ علمه ؛ فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلًا »[1] .

وقد تَعرِض لبعض أهل العلم أوهام فتمنعه وتصدُّه عن الدعوة إلى الحق والنشر للعلم .

منها أن يقول إني غير عامل بعلمي ، فكيف أعلِّمُه وأدعوْ إليه ! وقد ورد من الوعيد في ذلك ما لا يزيد عليه ؛ فيقال له : التعليم للعلم من جملة العمل به ، والذي يعلِّم ولا يعمل بعلمه خير بكثير من الذي لا يعمل ولا يعلِّم ، وإذا لم تقدر

---

(١) الصرف التوبة ، والعدل الفدية وقيل غير ذلك .

على الخير كله فلا تعجز عن القيام ببعضه ، وعليك أن تعلِّم ، وعليك أن تجتهد وتعزم على العمل بما تعلِّم . ولا شك أن الوعيد الوارد في حق من يعلِّم الناس ولا يعمل بما يعلّم هو ألزم وأجدر بالذي لا يعمل ولا يعلِّم ؛ لأن الأول فرض الله عليه فريضتين فقام بإحداهما وقصر عن الأخرى ، والثاني ترك الفريضتين جميعاً فهو بالوعيد أولى وبالعقوبة أحرى .

ومنها أن يقول في نفسه : إن الدعاء إلى الله والإرشاد لعباد الله تعالى مرتبة رفيعة ، ومنزلة شريفة ، هي من شأن أئمة الهدى والدين ووظيفتهم ، وأنا لست كذلك ولا من أهله ! فيحمله استصغاره لنفسه ، واحتقاره لها ، وتواضعه وانخفاضه على السكوت عن الدعاء إلى الله والقيام بوظيفة الإرشاد ، ويتوهم أن ذلك من التواضع المحمود ومعرفة الإنسان بقدر نفسه ووقوفه عند حدِّه ! وهذا من التوهمات الفاسدة ؛ لأن الحق لا يمنع عن الحق ، والخير لا يصرف عن الخير ؛ فعليه أن يجتهد ويشمِّر في الدعاء إلى الهدى ، والدلالة على الخير مع التواضع والخضوع ، والاستشعار للخشية والخشوع ، والاعتراف بالتقصير واحتقار النفس ؛ وذلك هو الكمال ، والجمع لأوصاف الرجال الذين لا تصدُّهم وساوس الشيطان

ولا تصرفهم تخيلاته وتلبيساته ، وترويجه للشر في معرض الخير .

ومنها أعني تلك الأوهام أن يشغل العالِم نفسه وأوقاته بمواصلة الأوراد ، وتتابع الوظائف من العبادات : من تلاوة وذكر ونحو ذلك . ويرى أن ذلك أفضل له ، وأولى به من الدعاء إلى الله وإلى سبيله ، ونشر العلم النافع في الدين .

والحق أن الدعوة إلى الله ، والنشر للعلم النافع مع الإخلاص لله فيه ، أفضل من العبادات اللازمة من نوافل الصلوات والأذكار ؛ لما في العلم من تعدِّي النفع واحتياج الخاص والعام والصغير والكبير إليه ، وفي الحديث « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي »[1] . وفي حديث آخر : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[2] .

ومع ذلك فلا ينبغي للعالم الداعي إلى الله أن يهجر الأوراد ويقصِّر عن وظائف العبادات ؛ بل ينبغي له أن يجعل لها أوقاتاً

---

(١) رواه الترمذي عن أبي أُمامة .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية عن معاذ .

تخصها ، ويُحسِن التفرغ للعبادات فيها خصوصاً بالليل وأوقات النهار التي لا ينشَط فيها لنشر العلم ، أو لا يحضر فيها الطالبون المستفيدون ، وقد قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ : اطلبوا هذا العلم طلباً لا يضر بالعبادة ، واطلبوا هذه العبادة طلباً لا يضر بالعلم . وقد كان الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ يقسِّم الليل أثلاثاً : ثلثاً للصلاة ، وثلثاً لدراسة العلم ، وثلثاً للنوم ، وقد ذكر حجة الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب ترتيب الأوراد من الإحياء كيفيةً في ترتيب أوقات العالِم وتوزيعها تخصه ، فليتمسّك العالم بما ذكره هنالك ، وليعمل عليه . والله يتولى هداه .

وهذه التوهمات التي ذكرناها وما في معناها مما لم نذكر قد يقع لبعض العلماء العاملين الموصوفين بتقوى الله وخشيته .

وأما التوهمات والحسبانات التي تقع للعلماء المترسِّمين ، الذين لم يتحققوا بتقوى الله وخشيته ، ولم يحرصوا على العمل بعلمهم فأمور كثيرة ، كلها ترجع إلى أحوال أهل الغفلة والتخليط ، فتصدهم عن الدعوة إلى سبيل الله ، وعن نشر العلم ابتغاء وجه الله ؛ مثل الاشتغال بأحوال

دنياهم وأمور معاشهم ، ومداهنة أهل الباطل من وجوه أهل الدنيا ومراعاتهم ، ومثل التسويف وتزجية الأوقات من حين إلى حين[1] ، ومثل الإبقاء منهم على ستر أحوالهم وتقصيرهم فيتوهمون أنهم إذا دعوا إلى الله وإلى الدار الآخرة وهم على خلاف ذلك تبيَّن للناس نقصهم وسوء أفعالهم وقبيح سيرهم ؛ فيسقطون بسبب ذلك من أعين الناس ، وتنحط منازلهم عندهم ، فلا يبقى لهم جاه ولا مقدار عند الخلق ، وهم أحرص شيء على إقامة جاههم ومنزلتهم في قلوب الناس لشدة رغبتهم في الرياسة التي هي من أقوى لذات الدنيا ، وأغلب الشهوات على النفوس المتبِعة للهوى .

ومن العلماء المترسِّمين من تكون العلوم التي هو مشتغل بها ، محصِّل لها ، ليست هي من علوم الدعوة إلى الله وإلى سبيله ، والتذكير به وبأيامه وآلائه ، وبوعده ووعيده وصاحبها يعدُّ نفسه عالماً ، ويَعُدُّ من ليس هو في مثل حاله من الجهال ، وذلك مثل الذي يكون علمه في دقائق علم الكلام والتقعُّر فيه ، ومجرد الفروع النادرة الوقوع من الفقه ، والفتاوى

---

(١) تزجية الأوقات : دفعها من وقت إلى آخر وإضاعتها .

الكائنة بهذه المثابة ، ومثل الذي يكون علمه بمجرد علوم الآلات اللُّغوية والأدوات الأدبية . فهذه العلوم وأمثالها ليست هي من علوم الدعوة إلى الله وإلى طريقه ، ولا المخوِّفة بلقائه ووعده ووعيده ، ولا المحذِّرة من إضاعة أمره وركوب نهيه ، وإن كانت تُعَدُّ من العلوم في الجملة ؛ ولكنها ليست من العلوم النافعة للخاص والعام ، ولا التي تدعو إليها حاجة الناس في دينهم وأمر آخرتهم ، وقد قيل : العلوم كثيرة وما كلُّها بنافعة ، والعلوم بمنزلة الأطعمة والأدوية ، يكون بعضها نافعاً ومُهِمّاً في حق كل أحد ، وبعضها للبعض دون البعض ، وبعضها مضراً للبعض أو للكل ، وفي ذلك تفصيل يطول ذكره .

فكل من يكون علمه مجرد هذه العلوم التي ليست بنافعة ولا مهمَّة في الدين ، كان إطلاق اسم العالم عليه صورة لا حقيقة لها ، وربما كان علمه ذلك سبباً لوقوعه في سخَط ربه ، وهلاك نفسه ، وذهاب آخرته . فينبغي أن يضيف العالِم بها إليها العلم بالعلوم الدينية الأخروية ، التي تقارنها المخافة والخشية لله ، ويكثر فيها ذكر الوعد والوعيد ، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ، ونحو ذلك . فهذه هي العلوم

التي قال فيها سفيان الثوري[1] ـ رحمه الله ـ : طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله . وكما قال الإمام حجة الإسلام ـ رحمه الله ـ في معنى ذلك .

وكما أنه تعرِض للعالم التقي وللعالم المخلط أوهام وظنون ، فتثبِّطه وتعوقه عن الدعوة إلى الله والدلالة على الخير ، والنشر للعلم ، فقد يقع للجاهل أوهام فتصده وتصرفه عن طلب العلم والتبصر في الدين ؛ مثل أن يتوهم أنه إن طلب العلم وعرفه توجهت عليه حقوق لله ولعباده ، ولزمه القيام بأوامر الله فيه ، واجتناب نواهٍ ومعاصٍ ، فهو يحسب بجهله أنه إن لم يعرف العلم ويطلبه سلم من تلك المطالبات وخَلُص . وهذا ظن فاسد وعذر بارد ، حتى أنك ترى بعض الجهال قد يمتنع عن حضور مجالس أهل الحق والدعوة إلى الله ، ويعدل عنها مخافة أن يسمع ما يلزمه العمل به من طاعة الله ، والاجتناب لما حرم الله عليه من معصية ، أو من الزهد في الدنيا وشهواتها التي قد استولت عليه وأخذت بمخنقه ، أو من الوعد والوعيد بثواب الله وعقابه ، ويحسب أنه ينجو من ذلك

---

(١) سيد أهل زمانه في علوم الدين ، وأمير المؤمنين في الحديث . ولد ونشأ بالكوفة ، وتوفي بالبصرة سنة ١٦١هـ .

ويسلم من المطالبة بما هناك بسبب جهله وعدوله عن الحق وأهله ، وهيهات هيهات ! فإن الله لا يعذره بجهله ، ولا يزيده بذلك إلا بعداً وعذاباً ، وخزياً ونكالًا .

وقد يَشغَلُ الجاهلَ عن طلب الحق ومعرفة الدين طلبُ الدنيا ، واستغراق الأوقات في الاشتغال بها ، والاغترار بزخارفها ، والجمع لحطامها ، حتى لا يبقى له وقت ، ولا يصفو له زمن لطلب الحق والدين . فيكون حظه الدنيا ، والشغل بجمعها ومنعها ، والتمتع بشهواتها ولذاتها ، فلا يكون له في الدين والآخرة من خلاق ولا نصيب ، وهو يتوهم لعُظْم جهله وفرط غفلته أن طلب الدنيا أهم في حقه وأوجب عليه وأولى به من طلب معرفة الدين ، والتبصر فيه ، والعلم بأوامر الله ونواهيه .

وفي أمثال هؤلاء يقول الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٣٠/٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ١٠/٧ ـ ٨] .

والحق أن الاشتغال بطلب معرفة الدين ، والتبصر في العلم والقيام بحق الله علماً وعملاً هو الأصل والأساس

والرأس والذي عليه التعويل ، وأمور الدنيا كلها إنما هي تابعة أعني المهمَّ منها ، وأما ما ليس بمهم فمنهي عنه ومزهَّد فيه . فانظر كيف يعكس الجاهل الغافل الأمور بجهله ، ويرد الرأسَ ذَنَباً والذَّنَبَ رأساً ، والتابع متبوعاً ، والمزهود فيه والمرغوب عنه مرغوباً فيه ، تعرف بذلك شؤم الجاهل ومضرته ، وكونه بلاءً وخزياً على أهله في الدنيا والآخرة ؛ ولذلك قيل :

ما يَبلُغُ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

وقيل أيضاً :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله

فأجسادهم قبل القبور قبورُ

وقد غلب الجهل ، واستولى على أهل هذا الزمان السيء حالُه ، وذَهَب بهم كُلَّ مذهب ؛ حتى صار الكثير منهم أو الأكثر لا يعلم ولا يدري بالحق والدين ما هو ، ولا بالآخرة والمصير إلى الله كيف هو . فصارت تلك بلية عظيمة عمّ ضررُها الجاهلَ والعالم ، والعام والخاص .

فأما تضرر الجاهل بها فليس بخفي ؛ لأنه قد أضاع بسببها ما فرض الله عليه من معرفة دينه وتعلم أحكامه .

وأما تضرر العالم بها فلتقصيره في الدعاء إلى سبيل الله ، وتعليمه الناس ما يجهلونه من أحكام دينه مع تمكنه من ذلك . فإذا صار الجهال بحيث لا يعلمون وجوبَ طلبِ ما فرض الله عليهم طَلَبَهُ من علم الدين ، وجب على العلماء تعريفهم بذلك ، وحَرُم عليهم السكوت عنه ، ولم يعذرهم الله في ترك ابتداء الجهال بالتعريف ، والتعليمِ للجاهلِ الذي يكون هذا وصفه ، وللعلماء في ذلك شغل شاغل عن كثير من مهماتهم .

* * *

وٱعلم أن في الإِسلام فترات والناس اليوم في بعضها ؛ إذ قد صار كثير ممن تشتمل عليه دائرة الإِسلام لا يعلمون ما فرض الله عليهم من طاعته ، وما حَرَّم عليهم من معصيته ، ولا يعلمون بوجوبِ طلبِ علمِ ذلك عليهم ثم العمل به ، فمتى ينتهضون لذلك ، ويأخذون في طلبه وهم لا يعلمون بوجوب ذلك عليهم ؟ فتعينت المطالبةُ على أهل العلم والدعوةُ إلى الله في حقهم ، بأن يعرّفوهم بوجوب ذلك عليهم ، ويحثوهم على طلبه ابتداء منهم ؛ فإن من لا يعرف ولا يعلم لا يمكن منه الطلب والتعرف .

وهذه الفترات التي تكون في الإسلام ، وتقع بين الدعاة

إلى الله وإلى دينه تشبه الفترات التي تكون بين الرسل من بعض الوجوه . وقد أشار إلى ذلك الشيخ العارف عبد الوهاب بن أحمد الشعراني[1] ـ رحمه الله ـ في أول كتابه المسمى : « تنبيه المغترين » أواخر القرن العاشر . وهي غير الغربة التي تكون للدين في آخر الزمان ، واقتراب الساعة التي قال فيها عليه الصلاة والسلام : « بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء الذين يُحْيُون ما أمات الناسُ من سنتي » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « دخل الناس في هذا الدين أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً كما دخلوا » .

فمن أهل هذا الزمان من لا يعرف الحق والدين ، ولا يعرف أن معرفة ذلك واجبة عليه .

ومنهم من يعرف وجوب ذلك ولكنه لا يطلب معرفته تساهلاً وتغافلاً ، أو تشاغلاً بأمور الدنيا واستغراقاً في جمعها والتمتع بشهواتها .

---

(١) هو الإمام العارف بالله أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني ؛ نسبة إلى قرية ساقية أبي شعرة من قرى المنوفية بالوجه البحري بمصر ؛ وهي التي نشأ بها . وتوفي بمصر سنة ٩٨٣هـ .

ومنهم من عرف ذلك وطلب معرفته ، ولكنه لم يعمل بما عرفه وعلمه .

ومنهم من عرفه وعمل به ، ولكنه لم يخلص لله في ذلك ؛ بل عَلِمَ وعَمِلَ لأغراض دنياوية وحظوظ فانية .

وكل هذه الأصناف ضالون مفتونون ؛ غير أن بعضَهم أَضلُّ من بعض وأشد فتنة ؛ وما أحسن ما قال بعض الأئمة من السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ : الناس كلهم موتى إلا العلماء ، والعلماء كلهم موتى إلا العاملون ، والعاملون كلهم موتى إلا المخلصون ، والمخلصون كلهم موتى إلا الوَجِلون، والوجلون على خطر غظيم . انتهى بمعناه .

فقد علمتَ بما تقدم ذكره من إعراض العامة عن معرفة الدين والطلب للحق ، ورضاهم بالجهل والعمى بدلًا عن العلم والهدى ، أنها قد تضاعفت المؤونة ، وعظمت المطالبة على أهل الدعوة إلى الله والبصيرة بدينه ، والمعرفة بعلمه حيث تعين عليهم كمال القيام ، والحرصُ على إرشاد الخاص والعام ، وبدايتهم بذلك ، وإشاعته فيهم ، ونشره بين أظهرهم ؛ ليعرف ذلك من لم يعرفه ، ويعلمَه من لم يعلمه ، فتتضحَ محجة الله للسالكين ، وتقوم حجة الله على الهالكين .

وعلى الدعاة إلى الله والعلماء بدينه أن يكونوا على نهاية وغاية من الرحمة والشفقة على المسلمين ، ومن الحرص والرغبة في إرشادهم وهدايتهم ، ودعائهم إلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة . وأن يكونوا على نهاية من الصبر والاحتمال ، وسعة الصدر ولين الجانب ، وخفض الجناح وحسن التأليف ؛ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ١٥/٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران : ٣/١٥٩] الآية . وإن احتاجوا إلى شيء من الشدة والغلظة مع من لا يصلحه إلا ذلك ، فيكون ذلك في الظاهر دون الباطن ، وعلى وجه لا يقتضي ولا يفضي إلى تنفير وفرقة .

وإن دخل عليهم ـ أعني على أهل الحق والدعاة إلى الله ـ شيء من الأذى من الجاهلين بسبب ذلك ، كان عليهم أن يصبروا ويُعرِضوا ويقولوا خيراً ؛ قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧/١٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٢٥/٦٣]. فقد قاست الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من أئمة الحق

والهدى ، من طوائف الجاهلين والمعرضين من الأذى أمراً عظيماً ، فصبروا واحتسبوا ، ولم يزدهم ذلك إلا حرصاً على إرشادهم وهدايتهم إلى سبيل الله تعالى ، ونصيحتهم في دين الله ، وحثهم وتحريضهم على إقامة أمر الله واجتناب نهيه .

هذا الذي درج عليه أنبياء الله ورسله والأئمةُ من أممهم ، والدعاةُ إلى دينهم من هذه الأمة المحمدية وغيرها من الأمم السالفة .

وأما إذا لم يقابَل الداعي إلى الله وإلى دينه بالردِّ الصريح وبالإيذاء ، ولكنه لم يُسمَع منه ولم يُقبَل دعاؤه ، أو قُبِل منه وأجيب ، ولكن لم يظهر على المستجيبين آثار الاستجابة من الأخذ بالحق والعمل به ، فليس له مع ذلك عذر في ترك الدعاء إلى الله وإلى سبيله ، ولو أن يستجيب له في الزمن الطويل العدد القليل .

ومثل هذا الحال الذي وصفناه ، يكون حال الداعي الناصح في أكثر الجهات الإسلامية في هذه الأزمنة[1] ، أنه لا يُؤذَىٰ ولا يُرَدُّ عليه الرد الصريح ؛ بل يُقبَل الحق منه أو

---

(١) توفي المؤلف عام ١١٣٢هـ .

لا يقبل ، ويُعمل بما يدعو إليه أو لا يعمل . وربما يجيء زمان بعد هذه الأزمنة ، وأيام بعد هذه الأيام ، يشتد فيها النكير ، ويعظم فيها الأذى على من يدعو إلى الحق ويَنصَح في الدين . فليغتنم الداعي إلى الله وإلى الهدى في هذه الأيام الدعاء إلى الله فيها وإلى دينه والحال ما وصفناه ، من قبل أن يأتي زمان آخر ، وناس آخرون يُرَدُّ فيه الحق على أهله رداً صريحاً ، ويؤذَون على ذلك أذًى قبيحاً ؛ بل ربما يُبادَؤُون بالأذى من قبل أن يدعوا إلى الحق والهدى ، ذلك عند اقتراب الساعة وظهور أشراطها وأماراتها العامة . كما يعرف ذلك مَنْ نظر في الأخبار والآثار .

ومن نعم الله على الداعين إلى الله وإلى دينه في هذا الزمان أنهم إذا دعوا ونصحوا باللسان العام ، لم يُرَدَّ عليهم ولم يؤذَوا . وأيضاً إذا خَصُّوا ، اللهم إلا أن يكون ذلك من بعض الجبارين والمتكبرين من أمراء الجور وولاة السوء . فليتق الدعاة إلى الله التخصيص والتعيين ليسلموا من سوء ردهم وفتنتهم وأذيتهم ؛ فإنهم ربما ضعفوا عن احتمال ذلك ، وضاقت صدورهم وضجِروا وتبرموا ، وجعلوا ما يلقونه من هؤلاء المفتونين حجة لهم في السكوت عن النصيحة ،

ورخصة في الإمساك عن الدعاء إلى الحق والدين . وليتأسَّوا بسيد النبيين وإمام الناصحين « محمد ﷺ » فإنه كان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لا يصرح بذكره ؛ ولكن يقول : « ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا » كما في الأحاديث . وذلك تألفاً منه ورفقاً ، وتلطفاً وستراً . وقد قال في وصفه عليه الصلاة والسلام ربُّه عـز من قائل كريم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤/٦٨] ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧/٢١] ، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨/٩] صلوات الله وسلامه عليه ، وزاده شرفاً وكرامة لديه ، ورزقنا كمال الاتباع له وحسن التأسي به ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١/٣٣] .

فقد تبيّن واتضح بما ذكرناه : أنه لا عذر ولا رخصة للعلماء بالدين في ترك الدعوة إلى الله ، وبذل النصيحة للمسلمين ، وتعريفهم بما يجب من طاعة الله واجتناب معاصيه ، وأنه لا عذر ولا حجة لأهل الجهل في ترك القبول منهم ، والاستجابة لهم ، والأخذ عنهم ، بل عليهم أن يطلبوا

ذلك ويحرصوا عليه ، ويقدموه على كل شغل ومهم من مهمات معاشهم ؛ فإن قصَّروا في طلب ذلك والسعي له ، لم يَسَعِ العلماءَ بالدين ، والدعاةَ إلى سبيل الله رب العالمين : أن يسكتوا كما سكتوا ، أو يتركوا كما تركوا ، فيكونوا سواء في الإضاعة والإهمال ، والتهاون بحق الله الكبير المتعال .

قال حجة الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ : (في آخر الباب الثالث من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإحياء) : اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان ، فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر ؛ من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم ، وحملهم على المعروف . فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد ؛ فكيف في القرى والبوادي ؟. ومنهم الأعراب والأكراد ، والتركمانية وسائر أصناف الخلق .

وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيهٌ يعلّم الناس دينهم ، وكذا في كل قرية . وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرَّغ لفرض الكفاية : أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ، من العرب والأكراد وغيرهم ، ويعلمهم دينَهم وفرائضَ شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زاداً يأكله

ولا يأكل من أطعمتهم ؛ فإن أكثرها تكون شبهة مغصوبة ، فإن قام به واحد سقط الحرج عن الآخرين ، وإلا عم الحرج الكافة أجمعين . أما العالم فلتقصيره في ترك الخروج . وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم . وكل عاميٍّ عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرِّف غيره وإلا فهو شريكه في الإثم .

ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالماً بالشرع ، وإنما يجب التبليغ على أهل العلم ، وكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها .

ولعمري ؟ إن الإثم على الفقهاء أشد ؛ لأن قدرتهم فيه أظهر ، وهو ببضاعتهم أليق ؛ لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعايش ، فهم قد تقلدوا أمراً لا بد منه في صلاح الخلق . وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بَلَغَه عن رسول الله ﷺ ؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء ، وليس للإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد ؛ لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة ، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي .

وكذلك كل من تيقن أن في السوق منكراً يجري على الدوام أو في وقت بعينه ، وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يُسقِط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت بل يلزمه الخروج . فإن

كان لا يقدِر على تغيير البعض وهو يحترز من مشاهدته ويقدر على البعض ، لزمه الخروج ؛ لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا تضره مشاهدة ما لا يقدر عليه ، وإنما يمتنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح .

فحقٌّ على كل مسلم أن يَبْدَأَ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلِّم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى عند الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محلته ، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل السواد المكتنف لبلده ، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم ، وهكذا إلى أقصى العالم . فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد ، وإلَّا حَرِجَ به كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً ، ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه ، وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلِّمَه فرضه ، وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يَشْغَلُه عن تزجية الأوقات ، أي إضاعتها في التفريعات النادرة ، والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات ، ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه والسلام. انتهى ما ذكره ـ رحمه الله تعالى ـ.

وليكن ذلك آخر الكلام في المقدمة المباركة ، ونشرع الآن مستعينين بالله ومعتمدين عليه في ذكر الأصناف الثمانية :